اجتهادات
هكذا تباعد العلمُ والضمير؟

لم تثمر جهودُ فلاسفة ذوى بصيرةٍ منذ أوائل القرن الـ 19 تصحيح مسار تسبَّب فى أحد اختلالات عالمنا. انشغلوا بأزمة الفلسفة، ونفذوا إلى مصدرها الذى وجدوه فى تناقص البُعد الإنسانى، ومن ثم فقد الروح أو ما صار يُعرفُ الآن بموت الفلسفة. لاحظوا أن ما كان يُهدَّدُ الفلسفة يُمثل خطرًا على العلم ويؤدى إلى انفلاته من الضمير والأخلاق. إنها معادلة بسيطة ولكنها لم تكن واضحة: فلسفة بلا روح = علم بلا ضمير أو بقليل منه.

كان الألمانى إدموند هُسرل قد نبَّه إلى أن الفلسفة تفقدُ جوهرها الإنسانى بمقدار ما يحاولُ الفلاسفة امتلاك سلطة معرفية، الأمر الذى يضعُها فى مقارنة مع العلم الذى يتقدمُ عليها. ومن هناك بدأ النقاشُ حول العلاقة بين الفلسفة والعلم. ولم تكن صُدفة أن أكثر من اهتموا بمتابعة هذا النقاش كانوا ألمانًا. فقد تميزت الفلسفةُ فى ألمانيا، منذ هيجل وماركس، بارتباطها الوثيق بالأوساط الأكاديمية فى جامعات عدة.

تخلى الفلسفة عن روحها سعيًا وراء «علموية» بشكلٍ ما كان بداية تراجع دورها، وفق ما تصوره هُسرل فى كتابه الصغير (الفلسفة علمًا دقيقًا) الذى ترجمه تحت هذا العنوان د.محمود رجب فى إطار المشروع القومى للترجمة 2002. ولإعادة الروح إليها، كان ضروريًا إيجادُ دور جديد يعيدُها إلى أصلها من حيث هى محاولةُ فهم كينونة الإنسان وعالمه. وهذا ما سعى إليه مارتن هيدجر فى كتاب (الكينونة والزمان) الذى ترجمه تحت هذا العنوان د. فتحى المسكين ونُشر 2012.

وتبعه تيودور أدورنو الذى كان إسهامُه نقلة كبرى من خلال تشريحه العميق لما اعتبره أثرًا خطيرًا يترتبُ على إخضاع الفلسفة للعقل الأداتى المرتبط بالعلم ونظرته الجزئية، على حساب العقل النقدى. غير أن النقلة التى أحدثها يورجن هابرماس ربما تكونُ الأكبر. توصل هابرماس، أحد أكبر فلاسفة ألمانيا الأحياء (94 عامًا), إلى أن التسليم بموت الفلسفة خطر على العالم والبشرية، لأنه يتركُ العلم بلا ضوابط ضميرية وأخلاقية، أو بالقليل منها.

ولكن هذه الإسهامات لم تجد من يتابعُها بعد أن قدم هابرماس كل ما لديه.